

تاريخ القبول: 2019/10/07

تاريخ الإرسال: 2019/06/02

تاريخ النشر: 2020/01/08

الخطابُ الاستعماري في المجال الديني بالجنوب الجزائري أهدافه وقنواته

The colonial discourse in the religious field in the Algerian south objectives and channels

د. أحمد بوسعيد

جامعة أحمد دراية. Boussaid1976@gmail.com

الملخص:

الواقع أنَّ بعض الممارسات الدينية استخدمها الاستعمار الفرنسي - أيضاً - في معرض استهدافه للجنوب الجزائري، ليكونَ ولوجُه إلى صدور العامة من تلك القنوات الدينية المقدسة، عبر الفتاوى المأجورة المنظَّرة للاحتلال وضرورة التسليم بكونه واقعاً لا مفرَّ منه، أو التشكيك في جدوى محاربهته ومقاومته، واعتبار ذلك ضرباً من قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، و(كفراً) بآيات الله وبفضائه وقدره، وبأنَّ العقوبة الإلهية ستطال المجرمين المحاربين لفرنسا على يد فرنسا! وبأنَّ القصاص آتٍ لا محالة كما زعمتُ إحدى المناشير الدعائية المورَّعة على سكان تيميمون سنة 1957م.

تحاول هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على هذا الجانب الخفي من السياسة الاستعمارية الفرنسية بالصحراء الجزائرية، وتبيان أهدافه الحقيقية والقنوات

المتباينة التي عبرها من أجل ذلك، وهل انطلت تلك الخديعة والحيل على ساكني الصحراء؟ وكيف تجلّت ردود الأفعال إزاء ذلك؟

الكلمات المفتاحية: الاستعمار، الخطاب، الدعاية، الجنوب الجزائري.

Abstract

Indeed, religious practices were used by French colonialism also in the exhibition targeted to the South of Algeria to be and face to the issuance of public of those channels religious holy cross Fatawa paid the view of the occupation and the need to acknowledge being a reality inevitable, or questioning the feasibility of fight and resistance, and regarded as a form of kill the soul which Allah has forbidden except by right, and (disbelief) the revelations of Allah and His decree, and that the punishment will reach criminals divine warriors to France at the hands of France! And that retribution is definitely coming, as it claimed a propaganda leaflets distributed to residents Timimoun year 1957.

This research paper is dedicated to shed light on this hidden side of French colonial policy in the Algerian Sahara, and demonstrate the real objectives and disparate channels through which to order it, and whether those deceived Trick and tricks on the inhabitants of the desert? And how it manifested itself reactions about it?

Keywords: colonization, discourse, publicity, Algerian south.

المقدمة:

مثلّ الاستعمار الفرنسي للجزائر منظومةً استدمارية متكاملة، لم تدعُ سبيلاً مؤدية إلى تحقيق أهدافها وتجسيد سياساتها إلا وتبنتها واستثمرتها، فقد تنوعت السياسات الاستعمارية الفرنسية عقب الاحتلال مباشرة لتشمل جميع الأشكال: استيطاناً وإدماجاً وتصبيراً وفرنسةً ومصادرةً... ولعلّ أخطرها وأشدّها تأثيراً ما ارتبط

منها بالجانب الروحي الوجداني للشعب الجزائري، في خطاب دعائي ديني يستهدف ثوابت الأمة ومقدساتها، ويستغلّ سذاجة العوام وجهلهم.

وما يلفتُ الانتباه هو حرص الاستعمار الفرنسي على انتهاج خطاب دعائي ديني مفضوح مُناقض لممارساته، من ذلك مثلاً أنّ فرنسا التي هدمت الصوامع والصلوات وغلّقت المدارس والجمعيات، وأماتت السنن وأحيث البدع، هي نفسها من قامت ببناء مساجد للجنود الجزائريين في الجبهة الأوروبية ضد ألمانيا، خلال الحرب العالمية الأولى 1914م، وبعثت بأئمة مسلمين ليؤمّوهم في الصلاة، وحدّرتهم من التحالف مع الألمان لأنّ "الله لا يحب الخونة" على حدّ زعمها! وهي ذاتها من كوّنت لجنة الأهلّة لمعاينة الهلال، وزفّ البشرى للمسلمين الجزائريين بموعد الصيام والإفطار ... فأصبحت تتحكّم فيه، وتُخفيه وهو في كبد السماء، وتُحكّم بالصوم في شوال والفطر في رمضان! كما علّق على ذلك الشيخ محمد البشير الإبراهيمي¹.

والواقع أنّ تلك الممارسات عينها استخدمها الاستعمار الفرنسي أيضاً في معرض استهدافه للصحراء الجزائرية، ومحاولات بسط نفوذه وسيطرته على أجزائها المترامية، فاستغلّ تعلّق الساكنة الصحراوية بدينهم وثباتهم على الإسلام والإيمان ومنطلباتهما، ليكون ولوجّه إلى صدور العامة وألبابها من تلك القنوات الدينية المقدسة. وعليه سناحول تسليط الضوء على هذا الجانب الخفي من السياسة الاستعمارية الفرنسية بالصحراء الجزائرية، والذي اتّبّع أسلوباً مآكراً، ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبلة العذاب.

1- محاولات الاستقطاب الاستعماري لمنطقة الجنوب الجزائري:

ظلّت منطقة الجنوب الجزائري عصيّة على التوغّل الاستعماري الفرنسي لعقود متوالية بعد الاحتلال، بفضل استماتة المقاومات الشعبية خلال القرن 19م، ونجاحها في عرقلة المدّ الاستعماري، وارتباك القوات الفرنسية التي واجهت مقاومات

عنيفة، أجبرتها على تحيين خططها وتعديل مساراتها، واللجوء إلى وسائل وطرائق تمهيدية، على رأسها البعثات الاستكشافية والرحلات التبشيرية المحاطة بالحملات العسكرية، التي لم تنقطع عن الجنوب الجزائري طيلة النصف الثاني للقرن 19م، ومنها²:

بعثة ميرشير Mircher، وبولينياك Polignac، وفاتون Vatoune، والطبيب هوفمان Hoffman، وجيرارد رولف Rohlef، والرهبان الثلاثة: بوشار Bouchard، ومينوري Menoret، وبولمي Paulmier، والضابط فلتر Flatters، والضابط كاميل دول Camile Douls.... وقد ساهم تعرّض معظم تلك الحملات إلى هجمات المقاومين من شرقي وغربي أعماق الصحراء الجزائرية في إصرار الفرنسيين وتحفيزهم أكثر من أجل التوسّع والسيطرة على الواحات الصحراوية.

والأمر الجليّ أنّ متزعمي الدراسات الاستكشافية للصحراء الجزائرية هم ضباط فرنسيون بالدرجة الأولى، بادروا إلى ذلك بأنفسهم أو بالإيعاز لمن يقوم بذلك نيابة عنهم، فقد ظهر سنة 1856م كتاب "الصحراء الكبرى" للفرق دوماس Dumas، اعتماداً على معلومات وصفية دقيقة استقاها من بدو الهضاب العليا، ترتبط بأهم المدن والقرى والأحياء الصحراوية، بل حتى الطرق والساحات والأسواق والأبواب الرئيسية³. وقبل ذلك بثلاث سنوات (سنة 1853م) ترجم القس بارجيس Bargés مخطوطاً هاما لمؤلف صحراوي أصله من أولف (منطقة تيديكلت) يدعى سيدي الحاج عبد القادر بن أبي بكر التواتي بن هيبية الله، وهو في مجمله رحلة - رغم قلة صفحاتها - تحوي معلومات هامة، نوّه بقيمتها مترجمها القس بارجيس الذي وجدها عملاً مفيداً وناقفاً للتعرف على أحوال الصحراء الجزائرية وبلاد السودان الغربي، كما اعتبر أنّ الأبجدية الخاصة بالطوارق التي جلبها صاحب الرحلة هي أكمل وأدقّ أبجدية عرفها الفرنسيون⁴. وجدير بالذكر أنّ ذلك القس كان مكلفاً من

قَبِلَ القبطان بواسوني Boissonnet بجمع معلومات متنوعة عن الصحراء الجزائرية.

وقد تركّزت الاهتمامات في أول الأمر على الحيز الجغرافي العامر من قِبَل قبائل الطوارق، نظراً لمساحته الشاسعة واعتباره باباً رئيساً من أبواب بلاد السودان، ففي سنة 1860م كتب دي كولومب De colomb "مذكرة حول واحات الصحراء والطرق المؤدية إليها" في محاولة لاستكشاف هذا المجال غير المعروف إلى حد كبير من قِبَل العسكريين الفرنسيين، وفي سنة 1864م عرّف دوفيريي Duveyrier بطوارق الشمال؟ أما رينيه باسيه René Basset فكان أول أكاديمي ينجز عملاً هاماً سمّاه "ملاحظات عن المعجمية البربرية"، وفي سنة 1890م نشر ديورتر Deporter لوحاته حول أقصى جنوب الجزائر، واصفاً القصور التي عرفها والطرق المتبعة والمسافات والمصادر الطبيعية وكذلك معطيات حول السكان. ثم تكألت تلك الأبحاث بجهود A.G.P. Martin الذي نشر كتابيه الهامين: "الواحات الصحراوية"، و"أربعة قرون من تاريخ المغرب الأقصى" سنتي 1908م و1923م⁵.

وهكذا تمكن الفرنسيون في مطلع القرن العشرين من التوغّل أقاصي الجنوب واحتلال عين صالح، وواحات تيديكلت، وقورارة، وتوات، وواد الساورة. وعُيّن لابيرين على رأس القيادة العسكرية التي استحدثت لجنوب الجزائر الصحراوي عام 1902م، فاتخذ عين صالح مركزاً لقيادته⁶. أما بالجنوب الشرقي فقد آلت القيادة - بعد احتلال وادي سوف - إلى قوات محلية سميت "القوم"، ضمت حوالي 50 شخصاً، ثم ما لبثت أن زالت نهائياً سنة 1907م، ليكون القائد الفعلي هو الحاكم الإداري الفرنسي بلاشير Blachere الذي عمل تحت وصاية قيادة القوات الفرنسية بتقوت، بناءً على التنظيم الإداري لمناطق الجنوب الصادر سنة 1902م، والذي تبعه

الإعلان عن مرسوم 1905م، حيث قسّمت المناطق إلى مقاطعات مختلطة وأهلية، تحت حكم السلطة الإدارية للشؤون المدنية أو ضباط الشؤون الأهلية في الجنوب⁷. وفي منطقتي الهقار والطاسيلي - أقصى الجنوب الجزائري - استتب الأمر للمستعمر الفرنسي بعد سلسلة من المقاومات والثورات، تزعمها الشيخ أمود ومساعدوه، انتهجت فرنسا على إثرها سياسة القوة والترهيب، وإضعاف صفوف المجاهدين وتشريد الكثير من السكان. وبعد معارك سجال بين الطرفين، امتدت إلى سنة 1920م، اضطر الشيخ أمود إلى التفكير في إيجاد مخرج لهذا النزيف الهائل، فعمد إلى استشارة مساعديه مثل إبراهيم آق أبكدة والمختار بن ديدي وأبا بن عبل على مخاطبا إياهم: "إن فرنسا إضافة إلى قوة سلاحها، معها إخوان لنا متمرنين على تسلق الجبال والقتال بها، ونحن قلّ عددنا وضعفت شوكتنا"⁸، وهي صرخة عزيز قوم فقه جانباً من السياسات الاستعمارية، التي يبدو أنها بدأت تؤتي أكلها.

2- ملامح السياسة الاستعمارية في المجال الديني:

لا يخفى على ذي نظر التوجهات والحملات الفرنسية المسعورة على الدين الإسلامي ورموزه ومقدساته بالجزائر⁹، والتي جعلت من محاربة الإسلام ومؤسساته هدفاً يُرجى تحقيقه، فتزعم تلك المساعي جيش جرار من المبشرين المسيحيين، على رأسهم الكاردينال لافيغري كبير أساقفة إفريقيا، وأنطوان ديبش، بعد إنشائهما أسقفية الجزائر سنة 1838م وجمعية الآباء البيض سنة 1869م. وفي سبيل ذلك منحتهما فرنسا ما يشاءان من الأموال والعتاد، ليواصل عملهما (المقدس)¹⁰ دون انقطاع.

وقد استهدفت تلك السياسة الاستعمارية الدينية مقومات الهوية الوطنية الجزائرية، من دين ولغة وتاريخ وثقافة مشتركة، ومرجعيات التنوع الجزائري عرقياً ومذهبياً، ومصادر التمويل بالنسبة للمارسات الدينية والعرفية طيلة العهد العثماني، المتمثلة أساساً في الأوقاف، وانقضت على أماكن العبادة من أجل تحويلها إلى

كنائس وتكنات ومخازن. ونجراً الفرنسيون حتى على الأموات، فقاموا بنبش القبور، لاستخراج الأجر والأحجار للبناء، ولنهب عظام الموتى لصنع الجير والسماذ، وبيعها في مدينة مرسيليا. ذلك ما أشار إليه حمدان خوجة في شهادته على أعمال الحاكم العام الفرنسي الجنرال كلوزيل قائلاً: "ولكي أذكر فضائل الجنرال كلوزيل، ما علي إلا أن أعدّد بعض الأعمال الخالدة التي وقعت أثناء ولايته، ففي عهده نهب الأموات في مدافنهم، وسمح بالأتجار بالعظام البشرية، وبيعت حجارة المقابر ثم نقلت إلى باب الوادي لتحول إلى مادة الجير، ووقع الاستيلاء على آجر المقابر...." ¹¹.

إنّ ذلك السلوك غير السوي أثار غضب الجزائريين وضاعف حقنهم على الاستعمار، وأكد لهم توجهاته الخبيثة الممنهجة في المجال الديني من جهة، وعزى أطروحات فرنسا ومزاعمها بنشر الحضارة والمدنية من جهة أخرى. وكان يمكن لبعض الجزائريين أن يعضّوا الطرف عن جوانب من تلك السياسات الموجهة، لولا تمادي الفرنسيين في فرضها واقعاً لا مفر منه، ونقضهم ميثاقهم ومعاهداتهم التي أبرموها غداة الاحتلال، وتباهي قياداتهم بالإساءة للجزائريين، واحتقار شعائهم ومقدساتهم، والمجاهرة بالدفاع عن الدين المسيحي، وعن عزاب الحركة التبشيرية الأولى بالجزائر "الكاردينال لافيغري". ومن شواهد تلك الممارسات والرؤى موقف الأدميرال دوغيدون الصريح: "قضيتُ حياتي وأنا أساند الحركات التبشيرية في كلّ جهات العالم، فكيف تسمح لي نفسي في أن أف ضدّها في أرض فرنسية؟" ¹².

وهذا برك - أحد أكابر الحكومة العامة بالجزائر - يعضّد تلك المواقف في شهادة قاسية نُشرت بعد موته: "لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الإسلامي، إلى درجة أننا أصبحنا لا نسمح بتسمية المفتي أو الإمام، إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس، ولا يمكن لموظف ديني أن ينال أي رقي، إلا إذا ما أظهر للإدارة الفرنسية إخلاصاً منقطع النظير" ¹³. إنّه توظيف خبيث للدين، وأيّ توظيف!

3- خصوصيات السياسة الاستعمارية الدينية بالجنوب الجزائري:

تلازمت الحركة التبشيرية مع الموجة الاستعمارية الفرنسية التي حاولت ولوج الجنوب الجزائري من بوابة المدن الهامة، كغرداية والأغواط وورقلة وبسكرة والبيض وغيرها، اعتماداً على الوسائل والإمكانات التي وقّرها لافيغري، مع الحرص على اتباع برنامج عمل واقعي، يُراعي خصوصيات المناطق الصحراوية في المجال الديني، ويواكب التطورات الحاصلة في القسم الشمالي من القطر الجزائري، ومن أهم تلك التوجيهات المقدّمة في مشروع ازدواجية الاستعمار والتنصير الواسع ما يلي¹⁴:

أ- أن يكون المستهدف بعملية التنصير القرية بأكملها (التنصير الجماعي) وليس الفرد الواحد، لأنّ نظام الجماعة في القصور والقرى الصحراوية، وكذا منظومة العلاقات الاجتماعية المتجذرة، يحتملان هذا النمط من الاستهداف. لذلك نجد أنّ الخطاب الدعائي الاستعماري كان عاماً، يستغلّ المناسبات والتجمعات السكانية للمواطنين، ويستخدم لغة تؤثر أيّما تأثير في الغوغاء والعوام.

ب- أنّ الفرنسي المسيحي في نظر السكان إنسان "كافر" عرييد، مارق من الضوابط الدينية والأخلاقية، متّبع لهواه ونزواته، لذا وجب التظاهر بالتدين والتحایل على المتلقين من أجل كسب ثقتهم وودّهم. والصبر على ما قد يلحق بهم من السّب والشتم، وعدم الاستعجال في قطف ثمار أعمالهم.

ج- جلب السكان خاصة الفقراء، وإغراؤهم بواسطة الأعمال الخيرية والتطبيبية¹⁵، وتعليم الأطفال وزيارة المرضى والقرى، والإندماج بسخاء في الحركية التضامنية المحلية المميزة للواحات والقرى الصحراوية.

وبالنظر إلى كون الجلّات¹⁶ والمساجد والمدارس القرآنية والزوايا تأتي على رأس المؤسسات الدينية والاجتماعية المدافعة عن الإسلام ومقدساته بالجنوب الجزائري، فقد طالها الحصار والتنضيق والإغلاق. ولمّا تبين للفرنسيين استحالة إتمام

هدفهم وتعلّق سكان الجنوب بتلك المرجعيات، حاولوا . عبثاً . تقمّص أدوارها واستنساخ نماذج هجينة عنها. كيف ذلك؟

تمّ ذلك من قبل لافيغري الذي قرّر أن يجعل من مدينة بسكرة - مفتاح الجنوب الجزائري ومركز التواصل بين التل والصحراء - زاوية مسيحية؟! نعم "زاوية" على غرار الزوايا الدينية الإسلامية الشائعة بها وبالواحات المجاورة لها. واقترح بأن تسمى هذه الزاوية المسيحية "بيت الله"، وأن يتزين أربابها وروادها بلباس مريدي الزوايا وأتباع الطرق الصوفية بالجنوب ما عدا غطاء الرأس¹⁷. كما قام بتأسيس حركة تصيرية مسلحة في بسكرة سنة 1891م، هي "جمعية إخوان الصحراء المسلحين"، وقد زعم مؤسسها أنها تهدف إلى محاربة بيع العبيد والرقيق في الجنوب الجزائري خاصة ومنطقة الساحل الإفريقي عامة.

وعلى نفس النهج سار دي فوكو في نشاطه بأقصى الجنوب، إذ لم يشرع في مخططاته حتى أطلقَ لحيته، وتقمّص (القندورة) وغطّى رأسه ببطاقيّة، وكان يمشي تارة حافياً وتارة أخرى بنعلين، ويحمل في عنقه مجموعة من التمام و"الحجابات" المصنوعة من الجلود، ويمتطي الجمال والحمير، جامعاً من حوله الفقراء والمعوزين، وكأنهم أتباعه ومريدوه، لقد تقمّص التدين كما تقمّص الزّي العسكري¹⁸.

4- التوظيف الاستعماري للخطاب الدعائي الديني بالصحراء ومبتغاه:

لقد اتّخذ الاستعمار الفرنسي من كلّ ما من شأنه تفويض دعائم الوحدة الدينية المتجذرة بين سكان الجنوب الجزائري سنداً يعتمد عليه في تجسيد سياساته الدينية، وانتهج لأجل ذلك خطاباً دعائياً ماکراً، يتلّون حسب مستويات المخاطب ودرجاته الاجتماعية، ويأخذ في الحسبان المتغيرات والتطورات العسكرية الميدانية.

غير أنّ هناك قواسم مشتركة ثابتة في تلك الحالات السابقة، يمكن أن نوجزها في المظاهر والنماذج الدعائية الدينية التالية:

أ. **التنظير لأفكار وواقع مُحدثين من طرف القادة والأنثروبولوجيين الفرنسيين:** وكان أول من ترعّم هذا التوجّه هو الحاكم الفرنسي كلوزيل في بيانه الأول للجزائريين سبتمبر 1830م، متحدّثاً عن حتمية وقدريّة الاحتلال الفرنسي للجزائر. ويسوق المرحوم أبو القاسم سعد الله مثلاً حياً عن ذلك التنظير للقضاء والقدر في قصة إسقاط صومعة جامع السيدة . أحد أجمل مساجد العاصمة . حيث عمد الفرنسيون إلى تفجيرها، واستعدوا لمواجهة ردود أفعال المسلمين القوية. غير أنّ أحد الكتاب الفرنسيين تفاجأ من كونهم لم يحركوا ساكناً، ولم يُظهروا تعصبهم؟ بل ظلّوا واقفين يشاهدون ذلك المنظر المثير، ويردّدون: مكتوب! مكتوب! واستنتج من ذلك أنّهم قديرون¹⁹! ولعلّ الأمور تشابهت على الكاتب، فتاة بين التعصّب والقديرية.

وخطرُ تنظير تلك الأقلام العِدائية لا يقلّ عن خطر الفعل الاستعماري بالجنوب الجزائري، ومن شواهد تلك السياسة الماكرة لجوء الاستعمار الفرنسي إلى تغذية الخلاف الفقهي المفتعل في التساؤل التالي: هل تجوز إقامة المسلم في بلد غلب عليه الكفّار النصارى؟²⁰. يظهر ذلك جلياً في "نازلة قورارة" الشهيرة بمنطقة توات وقورارة عام 1893م، حين استفتى أحد علماء المنطقة شيوخ الإسلام بمكة المكرمة مكاتبةً، عن رأي الشرع فيما إذا تغلب (الكفّار النصارى) على وطنٍ من أوطان المسلمين، ولم يكن في وسعهم ردّ الاعتداء. كما أن المحتلّ (الكافر) لأرض المسلمين رعّيبهم في إقامة الصلاة وشجّعهم على اختيار إمام الصلوات الخمس والجمعة، وأنهم لا يستطيعون مغادرة أراضيهم لاستضعافهم وخوفهم من مشقة الطريق والإبعاد عن الأوطان²¹. وجاء الردّ بأنّ شيوخ المذاهب الإسلامية الأحناف

والمالكية والشافعية قد أجمعوا على وجوب إقامة المستضعفين إذا أقاموا دينهم وشعائرهم مع الظروف المذكورة في النازلة (الفتوى).

إنّ ذلك التعبير عن الأطروحة الفرنسية المغرضة أخذ منحى خارجياً في ما يتعلّق بدوافع هجرة الجزائريين الدينية، ومنهم بعض سكان الجنوب الغربي الجزائري نحو المغرب الأقصى أواخر القرن 19م وظروف استقبالهم، وخير تعبير عن ذلك الخطاب الاستعماري رأي ميشو بلير التالي: "إن المهاجرين الجزائريين أقاموا أوهاماً كثيرة وأمالاً عريضة حول الاستقبال الذي يمكن أن يخصص لهم من طرف المغاربة، لكن الواقع أثبتّ عكس ذلك، فبالرغم من الخاصية الدينية التي دفعتهم إلى الهجرة، فقد استقبلوا ببرودة وبنوع من الحذر والريبة سواء من طرف المخزن المغربي أو الشعب، فقد اعتبروا كأجانب على أرض المغرب، وعمولوا بنوع من الاحتقار بالنظر إلى أنهم انهزموا أمام الكفار النصارى"²². إنّ إثارة مثل تلك المزاعم والافتراءات، والخلافات الدينية وإشاعتها، ومن ثمّ اشتغال العامة والخاصة بها، تؤكّد أنّ المستفيد الأكبر في الأخير هو فرنسا، التي كسبتْ رهان الوقت والجهد والمال، بينما استنزفتْ قوى سكان الجنوب الجزائري في خلافات لا طائل منها.

ب. **الاستهتار بالقيم والأخلاق والعادات الدينية لسكان الجنوب:** عمدت فرنسا إلى قلب الحقائق، والتشكيك في القيم والعادات الاجتماعية، التي لطالما مارسها السكان وأضحّت جزءاً من يومياتهم. وتعدى الأمر ذلك ليُلامس أعزّ ما يملك الفرد الصحراوي، شرفه وكرامته، فعظّم كتابُها واستبشروا بشأن بعض الممارسات الشاذة المحصورة الدخيلة على أخلاق السكان، فادّعوا بأن الصحراء موطن العهر والدعارة، وبأنّ المومسات يحظين بالتبجيل والاحترام من قِبل سكان الصحراء، وبأنّ ذلك الفعل مدعاة لجلب الخصوبة والبركة!. يقول إدموند دوثي Douthe في ذلك: "إنّ جارية الصحراء ليست منبوذة، يمرّ عليها المسلمون الأكثر ورعاً وتقوى، فلا يولّون وجوههم

عنها، ومعظمهم يظهرون تجاه بعض منهن احتراماً، لا تتمتع به حتى زوجاتهم²³. وهو افتراء وتجنُّ صارخ، يدخل في إطار الحملة الشاملة لتميع الأخلاق، وتشثيت وحدة سكان الصحراء الاجتماعية.

كما لم يسلم رجال الدين والأعلام الذين حملوا لواء المقاومة والجهاد، ورفضوا التبعية والانصياع، من سهام الفرنسيين وهمزهم ولمزهم، والتشكيك في جهودهم، واعتبارها ضرباً من المغامرة بالأبرياء، أو شكلاً من أشكال القرصنة الصحراوية. يصف بول مارتي Paul Marty أحد قادة قبيلة كنته، بعد أن هاجم الفرنسيين في جنوب الجزائر عام 1917م، بأنه (يقذف) بالمحاربين في غزوات (مثمرة)؛ وبأن ثروته الطائلة تسمح له بأن تكون من حوله على الدوام نواة من الأتباع والمحاسيب الأوفياء²⁴؟ وهل يمكن لأحد أن يقتنع بأن التضحية بالنفس من أجل الدين الوطن سبيلٌ إلى التكتسب والثراء بسهولة؟!

ج. مخاطبة العوام بأسلوب ماكر بسيط واستغلال تفشّي الفاقة والجهل: أدرك الفرنسيون أن الوسيلة المثلى لتجسيد أهدافهم في المجال الديني، هي مخاطبة سكان الجنوب الجزائري بصفة مباشرة، وبأسلوب بسيط ولغة دارجة عامية، يفهما معظم الناس. كما استعانتُ بالصور والرسومات لهما من تأثير على المتلقّي الجاهل، أو الفرد المُنخدع بأكذوبة "إنجازات فرنسا في الصحراء الجزائرية"، وكان سلاحها الفعّال في ذلك هو المناشير الدعائية التي تُمطرها طائراتها الحربية، أو تزيّن بها الساحات والتجمعات الشعبية. وقد جاء بعضها في شكل تساؤلات موجهة للسكان، تُخبرهم بين من يبني ويمون ويداوي (فرنسا) ومن يُخرّب ويرهب ويقتل (الثوار)، وبعضها الآخر حمل صيغة التهديد والوعيد، لكنّ الاستعمار وظّف . بحُبث . المفاهيم الدينية، التي يُدعن أمامها سكان الجنوب الجزائري، ويفقدسون مدلولاتها ومعانيها، على غرار: عقوبة الله، الكذب، قاتل الروح، القصاص، الغدر....²⁵. لقد تنوّعت تلك المناشير

الدعائية التي اعتاد السكان على رؤيتها، لكن هدفها واحد، وهو الإكثار والغلو في الكذب حتى يصدق الأمر الغوغاء من الناس.

5- المداخل والقنوات الاستعمارية ومدى فاعليتها:

من أجل تجسيد خطابهم الدعائي الديني في الجنوب الجزائري، قام الفرنسيون باستغلال جميع الوسائل والمداخل والقنوات الممكنة، لأن إخضاع الصحراء بصفة تامة مرهون بمدى اقتناع السكان بمضمون ذلك الخطاب، والاقتناع يؤدي لاحقاً إلى "التسليم" بكون الاحتلال واقعاً لا مفر منه. ومن أبرز تلك القنوات التي حاول الفرنسيون استغلالها في بسط سياساتهم الدينية ما يلي:

* استغلال بعض الطرق الصوفية والزوايا التي تم اختراقها، والتي تباينت مواقفها اتجاه الاحتلال الفرنسي للصحراء، بين معارض أو مؤيد أو متحفّظ. ويؤكد ذلك التباين الرحالة الفرنسي بارودون Baraudon بقوله: "... بعض الطرق تبدو مسالمة: القادرية والتجانية، ودعموا قضيتنا، والعكس بالنسبة للرحمانية والدرقاوية والسنوسية، وخاصة هاته الأخيرة التي أبدت عداً واضحاً لنا، وكانت تمثل الخصم العنيد الذي عرقل توسعنا بالصحراء الوسطى"²⁶.

والحقيقة الثابتة - التي لا يمكن إنكارها - هي أنّ الفرنسيين تمكنوا من تدجين بعض الزوايا والطرق الصوفية، وتحويلها من زوايا "العلم والقرآن" إلى دوائر "الشعوذة والخرافة والدجل"، ونجحوا في بثّ الشقاق والتنافس بين أربابها وزعاماتها، كما حدث مع الحنصالية والعيساوية، والصراع المفتعل بين أتباع الأمير عبد القادر وأتباع التجاني صاحب عين ماضي²⁷. ومهما يكن من أمر فإنّ هؤلاء الزعماء إنما يسيئون لأنفسهم، ولا يمثلون الصوفية الصافية، ذات المبادئ والأهداف السامية.

* استمالة بعض الأعيان والقياد من ذوي الوجاهة والكلمة النافذة المسموعة في أوساط سكان الجنوب الجزائري. ومحاولة استغلال الأوضاع الاجتماعية المميزة للجماعات

الصحراوية، المبنية غالباً على الطبقة الفئوية في بعض القرى والقصور الصحراوية، والرغبة في الذهاب بعيداً - كما صرّح بذلك الراهب الجاسوس شارل دي فوكو - رجاء الوصول إلى من سماهم: المعزولين والمنبوذين والمتقّدين²⁸!

*استدراج الزعامات المحلية الدينية، وإغراؤها بالمناصب والسلط الوهمية، ومن أشهر المحاولات الفرنسية البائسة في هذا المجال قضية مشروع فصل الصحراء. لكن علماء الجنوب الجزائري فطنوا لذلك التلبيس الاستعماري، ورفضوا التوقيع على وثيقة قاضي تمبوكتو المأجور، وعلى رأس هؤلاء الشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي مؤسس المدرسة الدينية الطاهرية ببلدة سالي بأرض توات سنة 1944م²⁹.

*تحين فرص المناسبات الدينية والأسواق الشعبية، التي كانت قادرة على الجمع والتعبئة واستقطاب مختلف الفئات الاجتماعية بطريقة تلقائية، واستخدام الوساطة والجواسيس من ضعاف النفوس.

6- ردود أفعال سكان الجنوب الجزائري على الدعاية الاستعمارية:

من القواسم المشتركة بين أهالي الجنوب الجزائري في ردود أفعالهم حيال تلك السياسات، اتفاقهم على مخاطبة الغزاة الفرنسيين بصفاتهم وأصولهم الدينية الحقيقية على غرار: الكفار، النصارى، الروم، أولاد مريم.... باللغتين العربية والأمازيغية. يتضح ذلك في شهادة أحد المدرّسين الفرنسيين آنذاك بقوله³⁰: "لم يكن التوارق ينعنون الفرنسيين سوى باسم ايكفارن، أي الكفار"³¹.

لم تزد تلك الممارسات الاستعمارية سكان الجنوب الجزائري إلا إصراراً على التمسك بما يُراد له المحو والتفويض، ومحاربة رموز فرنسا ووسائطها، ولا أدلّ على ذلك من حادثة مقتل الراهب الجاسوس شارل دي فوكو على يد الشاب الجزائري المسلم "سرمي آق طره" سنة 1916م. كما لم يرض سكان الجنوب الجزائري بأرواحهم وأموالهم في سبيل تعميم أوامر الكفاح، وتأجيج نار المقاومة، والانخراط

في الثورة التحريرية باكراً، حتى تبيّن للاستعمار الفرنسي أنّ جهوده ودعايته المغرضة في المجال الديني قد ذهبت أدراج الرياح.

الخاتمة:

حاول الاستعمار الفرنسي الاستثمار بدهاء في الخصوصيات الدينية لسكان الجنوب الجزائري، وتبني خطاب ديني مغرض، قوامه التحايل والتليبس والاستهتار بالرموز والمفاهيم الدينية المقدسة، لكنّ خططه انكشفت، بفضل الوعي والوحدة بين سكان الجنوب الجزائري، والرجوع إلى مناهل الدين الصافية.

ومحصلة الأمر - في ختام هذه الورقة البحثية - الوصول إلى نتيجة تاريخية ثابتة، مؤداها فشل السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة الجنوب الجزائري، كما حدث في بقية الجهات والمناطق، وخسارة المستعمر الفرنسي رهائه على القنوات الدينية والعرفية، المميزة والسائدة في تلك المناطق.

المصادر والمراجع



مناشير دعائية توظف الخطاب الديني (متحف المجاهد لولاية أدرار)

POPULATIONS DE

TIMIMOUN et de TINERKOUK

PAR LA MAIN DE LA FRANCE,

LA JUSTICE A FRAPPE.

Populations de **TIMIMOUN et de TINERKOUK**

n'écoutez plus les mensonges de la rébellion barbare et criminelle.

يا سكان تميمون
يا اهل تينركوك
على يد فرنسا عفوية الله
نزلت على المجرمين
ما تسمعوش لكذوب
العتنة الغائبة المجرمة

مناشير دعائية توّظف الخطاب الديني (متحف المجاهد لولاية أدرار)

يا فاتل الروح وين تروح لا بد تخلص جريمتهك



ILS TUENT

الغدارة فتلوا العساكر



ILS PILLENT ET S'ENFUENT

الغدارة نهبوا وهربوا



ILS SONT VUS

شاجتهم الطائرة



ILS SONT CHATIES

الحديد فرنسانزلت عليهم العفوية

LE CRIME NE PAIE JAMAIS

مناشير دعائية توظف الخطاب الديني (متحف المجاهد لولاية أدرار)

- ¹ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام الإبراهيمي، ج 03، ط 01، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص115.
- ² - يحيى بوعزيز، اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبه ومدى استفادتهم من طرق القوافل في غزوها، محاضرات الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي، تامنغست، سبتمبر 1979م، ص 52.
- ³ - رشيد بلّيل، قصور قورارا وأولياؤها الصالحون في المأثور الشفهي والمناقب والأخبار المحلية، ترجمة: عبد الحميد بورايو، منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، الجزائر، 2008م، ص 04.
- ⁴ - فارس كعوان، الإستشراق الفرنسي والتراث التواتي قراءة في رحلة بن هببة الله التواتي، أعمال الملتقى الوطني الرابع: إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث، أدرار، أبريل 2010م، ص 103.
- ⁵ - رشيد بلّيل، المرجع السابق، ص 05.
- ⁶ - المرجع نفسه، ص 58.
- ⁷ - عثمان زقب، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في وادي سوف 1918/1947م وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير، إشراف: د. يوسف مناصرية، جامعة الحاج خضرة باتنة، 2005/2006م، ص 23.
- ⁸ - عبد السلام بوشارب، الهفار أمجاد وأنجاد، ط 01، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 2005م، ص 104.
- ⁹ - مردّد ذلك بالأساس طبيعة ومرجعية الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر سنة 1830م، فهي حملة صليبية بامتياز، باركها القسيسون والرهبان، ورتّلوا عبر محطاتها آيات الإنجيل بأصوات عالية، وسمّوا طرفي معركتها "أبناء محمد" و"أبناء عيسى". - عليهما السلام. ووسموا الجنود الذين ماتوا في الجزائر بشهداء الوطن والحضارة والمسيحية، واعتبروا أنّ دماءهم قد وطّدت دعائم الكنيسة المسيحية في الجزائر.
- يُنظر المزيد في: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1830 - 1900م، ج 01، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص 79.
- ¹⁰ - عبد العزيز الكلوت، التنصير والاستعمار في إفريقيا السوداء، ط 02، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1992م، ص 35.

- 11 - حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006م، ص 260.
- 12 - خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830 / 1871م، الجزائر، 1977م، ص 153.
- 13 - أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ط 01، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956م، ص 148.
- 14 - خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 155.
- 15 - لقد بذلَ الكاردينال شارل لافيغري والرَّاهب شارل دي فوكو وأمثالهما جهوداً جبَّارة من أجل تنصير الأطفال الجَوَّع واليتامى والمشرَّدين والمرضى، إلا أن الأطفال كانوا بمجرَّد شفائهم أو حصولهم على القوت يفرّون من تلك الخيم والمراكز التنصيرية ويعودون إلى فِطرتهم وطبيعتهم بين ظهراني أهلهم وذويهم. وحين غزا الجفاف والجراد ربوع الجزائر سنة 1867م وأصاب أهلها الطاعون وعمت المجاعات، راحوا يسامون الناس على كسرة خبز أو شربة ماء، لكن دونما فائدة.
- يُنظر: عبد العزيز الكحلوت، المرجع السابق، ص 35.
- 16 - الجَلَّات مؤسسات تعليمية أهلية بسيطة، تقام في الخيام وعلى ظهور الجمال، أسهمت في نشر التعليم بالصحراء الجزائرية.
- يُنظر: عبد السلام بوشارب، المرجع السابق، ص 91.
- 17 - مصطفى خالدى وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1986م، ص 125.
- 18 - عبد السلام بوشارب، المرجع السابق، ص 114.
- 19 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 84.
- 20 - أوردَ الونشريسي في معياره نازلة مماثلة مثيرة بشأن مسلمي الأندلس، لكنَّه أفتى بتحريم وحظر الإقامة، وعرّفَ الرسالة بـ "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلبَ على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر".
- يُنظر: حسين مؤنس، قراءة في مخطوط أسنى المتاجر للونشريسي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الخامس، 1957م، ص 129.

- 21 - محمد الأمين بلغيث، سياسة التوسع الفرنسي في الجنوب الغربي من خلال فتوى قورارة، مجلة المصادر، العدد الثالث، المركز الوطني للدراسات والأبحاث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954م، الجزائر، 2000م، ص 135.
- 22 - إدريس بوهليلة، الجزائريون في تطوان خلال القرن 13هـ/19م، ط 01، مطبعة الهداية، تطوان، 2012م، ص 36.
- 23 - أحسن دواس، صورة المجتمع الصحراوي الجزائري في القرن 19م من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين، مذكرة لنيل الماجستير في الأدب المقارن، إشراف: أد/ الأخضر عيكوس، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007/2008م، ص 121.
- 24 - محمد السعيد القشّاط، أعلام من الصحراء، ط 01، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 1997م، ص 98.
- 25 - يُنظر ثلاثة نماذج من تلك المناشير الدعائية في الملاحق المرفقة آخر هذه الورقة.
- 26 - أحسن دواس، المرجع السابق، ص 59.
- 27 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 299 .
- 28 - عبد السلام بوشارب، المرجع السابق، ص 111.
- 29 - يُنظر تفاصيل هذه القضية المثيرة وجوانبها الخفية في:
مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء النقات، ط 02، مداد للطباعة والنشر، غرداية، 2012م، ص 93.
- 30 - عبد السلام بوشارب، المرجع السابق، ص 125.
- 31 - يدلُّ الخطابُ الدينيُّ المضاد على حقيقة الخطاب الاستعماري المفروض، ويبدو أنَّ الأمرُ تعدّى إلى صحراء موريتانيا الشرقية. فهذا مخطوطٌ موجّه للفرنسيين عن آبار المياه في الصحراء بعنوان: "إخبارُ الأبحار بأخبار الآبار!" وهذا شاعرٌ يحذّر من الفرنسيين قائلاً:
حماة الدين إنَّ الدين صارا أسيراً للصوص وللنصارى
فإنْ بادرتموه تداركتموه وإلّا يسبقُ السيفُ البدارا
- يُنظر: علي بدوي علي سالمان، الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا، رسالة ماجستير، إشراف: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، 2003م، ص 88. و: محمد السعيد القشّاط، المرجع السابق، ص 41.